دور العلوم الزراعية فى غرس وتثبيت الإيمان

د. محمد الحسن بريمة
بروفسير فتحي محمد خليفة

ملخص المقالة

تسعى هذه المقالة إلى ابراز الدور الذى يمكن أن تلعبه العلوم الزراعية فى ترسيخ دعائم الإيمان بالله ، وذلك بتوسيع مداركنا لفهم ما جاء فى القرآن الكريم من آيات تتعلق بالنبات والزراعة . تؤكد المقالة من خلال الشرح العلمى لبعض آيات النبات أن القرآن هو من عند الله مما يؤدى إلى اطمئنان قلب المؤمن وبذر الإيمان فى قلب غيره . الإيمان بالله يتطلب قبول ما جاء من عنده فى القرآن والسنة من أحكام وتكاليف تقتضيها خلافة الإنسان على الأرض واستعماره فيها . وعقد الإستخلاف وعمارة الأرض يتطلب إستخدام العلم ، كل العلم ، لتنفيذ مشيئة المستخلف بمقتضى شرعه لجلب المصالح ودرء المفاسد .

كذلك ترتب المقالة على نتائجها الإيمانية توسيع مفهوم العلم وتطبيقاته فى مجال الزراعة ليشمل علوم الخبر بجانب علوم المختبر . فيصبح من العلم إستخدام الدعاء فى مكافحة الآفات الزراعية كما تستخدم المبيدات الكيميائية ، لأن كل ذلك يدخل فى السببية التى تحكم هذا الكون والمنتهية إلى الله سبحانه وتعالى .

تلخص المقالة إلى ضرورة المدخل الإيمانى إلى العلوم الزراعية بحثاً وتدريساً وتطبيقاً . وسوف تناقش الورقة نقاشاً موضوعياً كل ما سبق ذكره من قضايا .

مقدمة

إن حال الدعاة إلى التأصيل المعرفى وحال الأمة الإسلامية اليوم يشبه حال الطبيب مع شخص مريض . فالطبيب يعرف أن الشخص الذى أمامه مريض لأنه علم بحالة الشخص السليم المعافى . والمطلوب أن يشخص داء مريضه ثم يتعهده بالدواء حتى يعود سليماً كما كان . وهكذا الأمم تمرض كما يمرض الأشخاص ، إلا أنه بينما

يكون غالب مرض الناس عضوياً ومنه النفسى فإن الأمم تمرض فكرياً . والأمة الإسلامية اليوم أمة مريضة لأن حالها الآن لا يشبه حالها عندما كانت فتية سليمة . ودعاة التأصيل قد نصبوا من أنفسهم أطباء عاكفين على تشخيص أدواء الأمة ، ثم من بعد وصف العلاج لها وتعهدها بالرعاية حتى تعود إليها عافيتها . ومفهوم التأصيل يعنى أن يتم تشخيص الداء الفكرى فى معمل القرآن والسنة وأن تؤخذ الوصفة العلاجية من صيدليتهما أيضاً . كما أن مهندس العربات يأخذ قدراته وخبرته الذاتية من المدرسة الفنية التى تلقى فيها دروسه فى ميكانيكا السيارات . فتلك المدرسة تحدد له مصادر المشكلات الفنية وأنواعها ، والعلم اللازم والأدوات الفنية المناسبة لحل تلك المشكلات ، وكيفية التأكد من أن مشكلة ما قد عولجت أم لا . كذلك العالم المتخصص يعتمد أساساً بجانب قدراته وخبرته على المدرسة العلمية التى تتلمذ عليها حيث تتحدد مصادر معرفته ، ومحتوى تلك المعرفة ، ووسائل تحصيلها ، والعقلية المناسبة لتلقيها ، ثم مجالات تطبيقها والإستفادة منها .

إن المدرسة العلمية السائدة اليوم والتى تشكلت فى إطارها العلوم الحديثة طبيعية كانت أم إجتماعية هى المدرسة الوضعية (Positivism) التى نشأت فى اوربا عبر قرون من الهيمنة العلمية الأوربية . إن المدرسة الوضعية هى التى حددت الإجابة عن الاسئلة المعرفية المتعلقة بمصدر المعرفة ومحتواها ومنهجها ومتلقيها وتطبيقاتها . وهذه الاجابة الوضعية هى التى تحدد معارفنا العلمية اليوم بما فى ذلك العلوم الزراعية موضوع المقالة . ويمكننا تلخيص موقف المدرسة الوضعية من هذه الأسئلة الخمس التالية :

(١) مصدر المعرفة :

الكون المحسوس هو وحده المصدر المعتمد للعلم .

(٢) محتوى المعرفة :

المطلوب هو معرفة القوانين الطبيعية الكلية التى تستطيع تفسير الظواهر المختلفة طبيعية كانت أم إنسانية . ويتم ذلك من خلال الوصول إلى فرضيات نظرية يمكن التدليل على صدقها أو كذبها بالتجربة الأمبريقية .

(٣) منهجية المعرفة :

الملاحظة الحسية والاستقراء والتجربة المعملية هى وحدها الوسائل المشروعة للحصول على العلم .

(٤) متلقى المعرفة :

« يجب أن ألا يخضع العقل إلى إغراء فيخلع القداسة على أى شئ ، بما فى ذلك الإنسان ، أو أن ينسب له معنى خاصاً أو يرى ثمة سراً فيه لا يمكن الوصول إليه . إذ يجب على العقل أن ينزع بكل برود وحيادية وعلمية وموضوعية القداسة عن كل الأشياء ثم يردها إلى القوانين الطبيعية المادية الكامنة ، وعليه أن يستبعد كل المعايير الغيبية والمثالية بل والغائية عن طريق إدراكه ومن نسقه الخلقى بحيث لا يبقى سوى المعايير العلمية الموضوعية المادية » (١)

(٥) تطبيقات المعرفة :

الهدف من العلوم تقديم الحلول العلمية للمشاكل العلمية التى تواجه الإنسان فى صراعه مع الطبيعة من أجل حياة أفضل . ويتم ذلك من خلال تفسير ما وقع من ظواهر طبيعية وإجتماعية ، والتنبؤ بما سوف يقع بحسب معطيات القوانين العلمية ومنهجيتها .

ذلك باختصار شديد جوهر المدرسة العلمية (**الوضعية**) التى نتلقى منها علومنا اليوم بما فى ذلك العلوم الزراعية . وغنى عن القول أن الفلسفة العلمية إنما هى فرع شجرة الفلسفة الأم ، أى فلسفة الحياة أو المذهبية العلمانية كفلسفة حياة سادت أوربا منذ قرون وما زالت تجتاح أعاصيرها باقى العالم .

وبإيجاز يمكن أن نقول أن العلمانية هى : « رؤية مادية محضة بالدرجة الأولى ، إذ أن النظرية العلمانية عند المتطرفين تفترض أن الله غير موجود . أما العلمانيون « **المعتدلون** » فيقولون إنه موجود ولا بد من الإيمان به ، ولكنهم مع هذا يستبعدونه من النموذج المعرفى (**ومن ثم النموذج الأخلاقى**) . فالخالق هو بمثابة صانع الساعة صنعها ثم تركها تدور حسب قوانينها الداخلية الآلية ، أو هو مثل المهندس الذى بنى منزلاً ثم تركه وشأنه . فالمنزل يقوم بوظيفته ويمكن دراسته والاستفادة منه دون ذكر المهندس أو الإهتمام به – أى أن الخالق ينكمش بحيث يصبح مسئولاً عن البدايات وربما عن النهايات ، أما ما بينهما (**حياة الإنسان فى الدنيا والزمان**) فهو خاضع

للقوانين الطبيعية الكامنة فى المادة .

والعلمانية بغض النظر عن الموقف من الخالق رؤية آحادية للواقع ترى أن العالم بأسره مكون أساساً من مادة واحدة تشكل كل من الطبيعة والإنسان ، وهى مادة قد تكون أكثر تركيباً فى الإنسان منها فى الطبيعة ، ولكنها تظل فى نهاية الأمر مادة عامة لا قداسة لها ولا أسرار فيها ، وليس لها حرمة خاصة سواء كانت فى الشجرة ، أم الفراشة أم الإنسان . فهى مادة خاضعة لقانون طبيعى واحد أو مجموعة من القوانين الطبيعية التى تتسم بالوحدة النهائية ، فلا يوجد قانون للإنسان وآخر للجماد وثالث للطبيعة . هذه القوانين يمكن للحواس والعقل (من خلال المحاولة والخطأ) التوصل لها ومعرفتها والإحاطة بها والتحكم فيها وتوظيفها لصالح الإنسان أو الدولة أو لأى هدف يقرره من يمتلك هذه المعرفة ويمتلك وسائل تطبيقها .

ويمكن أن نستخرج نظرية فى السياسة والأخلاق والحقوق من هذه النظرية فى المعرفة . ففى إطار هذا النموذج المعرفى من الأجدى التركيز على هذا العالم وعلى أموره وحسب ترتيب المجتمع الإنسانى وإدارته على أسس غير دينية زمنية مادية وبالتالى كمية علمية دقيقة (٢)

تلك بإقتضاب المذهبية العلمانية ونظريتها المعرفية التى تشكل الأساس العلمى لمناهجنا التى نقوم بتدريسها فى جميع مراحل تعليمنا بما فى ذلك التعليم العالى . وحقيقة الأمر هى أننا عندما نقوم بأبحاثنا العلمية فى أى مجال من المجالات فإننا بوعى أو بدون وعى نلتزم فى أنفسنا ونلزم طلابنا بالتقيد بمعايير المدرسة الوضعية فى البحث اوالتفكير . والتأكد من هذه الدعوى لا يحتاج إلى كبير جهد ، فنظرة عجلى على مناهجنا ومصادرنا العلمية كتبا كانت أم دوريات تقطع بصحة الدعوى حيث لن نجد أثراً للمذهبية الإسلامية ولا لنظريتها المعرفية . وكمثال على ذلك نذكر هنا ما ذكرنا من قبل (٣) فى مجال العلوم الزراعية من أنه وبمقتضى المنهجية الوضعية فإن القرآن والسنة ليسا مصدراً للعلم ومن ثم فإن صلاة الإستسقاء مثلاً لا يمكن أن تكون وسيلة علمية لإنزال المطر وإن جف الزرع . والدعاء لا يمكن أن يكون مبيداً وإن أكل الجراد ثمرة الجهد . كذلك فليس من العلم عند الوضعية أن نربط سببياً بين ما يصيب الزراعة من صلاح أو فساد وبين مواقف أصحابها الأخلاقية من حيث الشكر أو الكفر بنعمة

الله ، بينما هذه العلاقة ثابتة فى القرآن والسنة كما سنثبت ذلك فى موضعه إن شاء الله.

إن المعرفة الزراعية كمعرفة علمية هى اليوم كغيرها من العلوم الحديثة ثمرة للمدرسة الوضعية العلمانية ، ومن ثم فهى منبتة الصلة بالمذهبية الإسلامية ونظريتها المعرفية . لذلك فهى لا تكاد تلعب دوراً فى ربط طالب العلوم الزراعية بمطالب الإيمان العالية وترسيخ دعائمها فى قلبه ، ومن ثم ترتب أثر ذلك واقعه العملى كخبير زراعى فى الحقل أو كعالم زراعى فى مجتمعه . لقد ظلت العلوم الزراعية ترابية المنشأ ، مخلدة إلى الأرض ، وقد آن لها أن تمد بصرها إلى السماء لترى أن لها شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

لكل ما سبق فإن هذه المقالة هى محاولة لفتح ملف العلوم الزراعية فى إطار المذهبية الإسلامية ونظريتها المعرفية . نأمل أن ندلل على أن هنالك فرقاً كبيراً بين أن تتم المعرفة الزراعية فى إطار نظرية المعرفة العلمانية وتلك الإسلامية .

العلوم الزراعية فى إطار المذهبية الإسلامية ونظريتها المعرفية

إن المذهبية الإسلامية تبدأ بتأكيد ما أكده القرآن من أن الله تعالى إنما خلق الإنسان لعبادته :

﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ (الذاريات ٥٦) . وعبادة الله تعنى معرفته ثم القيام بأمره ونهيه فى أرضه بمقتضى شرعه . وفى هذا الإطار فإن المذهبية الإسلامية تؤكد السمات التالية :

(١) أن عبادة الله مسرحها الذى تدور فيه هو الأرض : ﴿ **قلنا اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو * ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين** ﴾ (البقرة ٣٨) ، ﴿ **قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون** ﴾ (الأعراف ٢٥) .

(٢) إن هذه العبادة تتم فى إطار استخلاف الإنسان على الأرض : ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة** ﴾ (البقرة ٣٠) . والخليفة وسط بين طرفين ، فلا هو مالك أصيل مطلق التصرف والحرية فيما استخلف فيه، ولا هو مقهور مجبور لا حول له ولا قوة ، ولا إرادة . فعقد الخلافة يقتضى أن يقوم المستخلف (**الإنسان**) بسياسة ما استخلف فيه (**الأرض**) وفق ما يحب ويرضى المستخلف (**الله سبحانه**) .

(٣) إن عقد الإستخلاف الذى تتم فى إطاره العبادة يقوم على إعمار الأرض : ﴿ **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** ﴾ (هود ٦١) .

(٤) إن هذه الخلافة تقوم على مبدأ الإمتحان والإبتلاء والمحاسبة : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً** ﴾ (الملك ٢) . فالإنسان يمكنه أن يعمر الأرض وفق منهج الله فيعمل فيها صالحاً ، أو وفق هوى نفسه فيفسد فيها .

(٥) إن مجال الفتنة والإبتلاء بتمركز فيما أودع الله سبحانه فى الأرض من زينة : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾(الكهف ٧) .

(٦) إن ما على الأرض من زينة إنما يقوم على أصلين هما المال والبنين : ﴿ **المال والبنون زينة الحياة الدنيا** ﴾ (الكهف ٤٦) .

(٧) إن الإبتلاء فى المال والبنين إنما صار بسبب تزيين ما أودع الله فيهما من شهوات للنفس البشرية : ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ۞ ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ (آل عمران ١٤-١٥) .

(٨) إن ثمرة هذا الإمتحان فى المال والبنين إما أن تكون شكراً أو كفراً ، والشكر على نعمة الله هو المطلوب من الإنسان ، والشكر هو جوهر عبادة الله وثمرة العمل الصالح : ﴿ **إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ (الإنسان ٣) ، ﴿ **إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر ، وإن تشكروا يرضه لكم** ﴾ (الزمر ٧) .

(٩) إن الإنسان إنما أصبح قادراً على الاختيار بين الشكر والكفر بسبب ما خلق الله فى النفس البشرية من دوافع التقوى والفجور : ﴿ **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها** ﴾ (الشمس ٨) . ثم منح الله الإنسان إرادة الاختيار والمشيئة فى الفعل : ﴿ **فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** ﴾ (الكهف ٢٩) .

(١٠) أن الشكر لله تعالى يقتضى توفر ثلاثة شروط : علم ، وحال و عمل بمقتضى ذلك العلم .

إذن فالمذهبية الإسلامية تقودنا منطقياً إلى نظريتها المعرفية حيث وضح فى (١٠) أن العلم هو قدر المؤمن لأنه شرط لازم لشكر الله على نعمه ، والعلم المطلوب

للشكر هو علم بالمنعم ، وعلم بالنعمة ، وعلم بالحكمة التى من أجلها خلقت تلك النعمة ، والحال المطلوب هو حال نفسى من الفرح والإمتنان والتواضع وتمنى الخير للآخرين والطمع فى مزيد النعمة ، يثيره ما تحقق من علم بحقيقة المنعم والنعمة وحكمتها . والعمل المطلوب هو استخدام تلك النعمة بمقتضى الحكمة التى من أجلها خلقت ، أى فى سبيل مرضاة المنعم .

ولعل الموضع مناسب الآن لنعرض لنظرية المعرفة الإسلامية فى إطار مفهوم الشكر أعلاه لنرى إن كان للعلوم الزراعية دور تضطلع به فى تحقيق هذا المفهوم ، وما اذا كان ذلك يتطلب فهما جديداً للدور المطلوب من العلوم الزراعية . وسوف نفعل ذلك فى إطار المنهجية التى إتبعناها فى عرضنا للفلسفة الوضعية العلمانية ، أى من حيث مصدر المعرفة ومحتواها ومنهجيتها ومتلقيها وتطبيقاتها .

(١) المصدر :

الله سبحانه وتعالى هو المصدر الأول لكل علم : ﴿ **قل الله خالق كل شئ** ﴾ (الرعد ١٦) ، ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ (الصافات ٩٦) ، ﴿ **ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء** ﴾ (البقرة ٢٥٥) ، ﴿ **وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم** ﴾ (الحجر ٢١) . ولكن لأن الغرض من خلق الإنسان هو أصلاً معرفة الله سبحانه ولأن الله تعالى لا تدركه الأبصار : ﴿ **قال لن ترانى ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى * فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقاً** ﴾ (الأعراف ١٤٢-١٤٣) ، فقد جعل من دونه مصدرين رئيسين منهما يستقى الإنسان معرفته بالله وبنفسه وبدوره فى الحياة الذى من أجله خلق ، هذان المصدران هما القرآن والكون .

إن العلوم الزراعية اليوم كغيرها من العلوم الطبيعية تستقى جميع فرضياتها من الكون المحسوس لأن ذلك شرط من شروط المدرسة الوضعية ، ولكن نؤكد أن القرآن الكريم مصدر غنى بالكليات العلمية فى مجال العلوم الزراعية وغيرها . وهذه الكليات أو ما يسمى بالمبادئ الكلية للعلم هى التى يبحث عنها المختصون فى كل علم لكى يؤسسوا عليها ذلك العلم . ذلك أن القرآن هو فى ذاته علم ، إلا أن آياته أيضاً أعيان كمفردات الكون المحسوس ، وتحوى فى داخلها كنوز من العلم تحتاج إلى سبر أغوارها وفهمها : ﴿ **ما فرطنا فى الكتاب من شئ** ﴾ (الأنعام ٣٨) ، إن علماء الزراعة من

المسلمين مدعوون إلى الغوص فى أعماق الآيات القرآنية ذات الصلة بالزراعة لعلها تلهمهم نظريات زراعية أو نباتية جديدة توفر على البشرية الكثير من الوقت والموارد كانت سوف تنفق قبل أن نصل إلى تلك المعارف لو اعتمدنا على الكون المحسوس وحده كمصدر للمعرفة النباتية والزراعية. إن القرآن والكون يتكاملان لمدنا بالعلم النافع فى كل مجالات الحياة ومنها الزراعة .

(٢) المحتوى:

إن المحتوى المعرفى لأى علم من العلوم يعتمد على نوع الأسئلة المثارة بشأن مصدر تلك المعرفة وماذا نريد أن نعرف عنه . وفى إطار نظرية المعرفة الإسلامية فإن المصدر الأول للمعرفة هو الله سبحانه وتعالى وهو المعنى بتلك المعرفة . والأسئلة العلمية المتعلقة بالله سبحانه والتى سوف تحدد محتوى المعرفة الإسلامية فى أى مجال من المجالات أشرنا إليها فى معرض حديثنا عن الشكر هو جوهر عبادة الله التى من أجلها خلق الإنسان . فلقد قلنا أن أحد شروط الشكر هو العلم بالله تعالى والعلم بالنعمة موضوع الشكر والعلم بالحكمة من خلق النعمة . إذن يمكننا أن نقول أن محتوى العلوم الزراعية مثلاً فى إطار نظرية المعرفة الإسلامية ينبغى أن يعكس هذه الأبعاد الثلاث للعلم المتعلق بالشكر . فلننظر إذا إلى ماهية العلوم الزراعية تحت هذه الأبعاد الثلاثة :

أولاً : فيما يتعلق بالعلم بالله فإن العلم المطلوب هو العلم بأسماء الله تعالى وبصفاته التى تجعله منعماً منفرداً بالنعمة . هذا العلم هو المدخل إلى الإيمان ، فمن أين نتحصل عليه ؟ هنالك مصدران أساسيان لهذا العلم أولهما كتاب الله المقروء المنزل بواسطة رُسله ، ثم كتاب الكون المحسوس . أما المصدر الأول فهو قرآن الله الذى نزل بلسان عربى مبيّن يتكلم عن الله تعالى بأسمائه وصفاته . وأما ما يعنينا هنا فهو كتاب الكون المحسوس كمصدر للعلم عن الله تعالى ودور العلوم الزراعية فى ذلك . إن القرآن الكريم يخبرنا أن العلم المطلوب من كتاب الكون هو علم الآيات المعنى بدلالة المخلوق على الخالق والكون على المكون . وعلم الآيات منه ما هو إعتبار شخصى يرسخ إيمان المؤمن ويبذر البذرة الإيمانية فى قلب غيره ، ومنه ما يدخل فى إطار السببية العامة المتعلقة

بالظواهر التى تكتنف حياة الإنسان . وعلم الآيات يظهر التكامل المعرفى بين الوحى وبين الكون كمصدرين للمعرفة المتعلقة بالله تعالى . فالوحى يدل عقولنا وقلوبنا على مواقع الكون التى ينبغى أن نبحث فيها عن آيات الله ، وما نكشفه من أسرار الكون العلمية المطابقة للوصف القرآنى يزيد من يقيننا بأن القرآن من عند الله فتطمئن قلوبنا ويزداد إيماننا . ولنأخذ كمثال على ذلك الآيات القرآنية التالية فى مجال الزراعة :

(١) ﴿ **وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه . إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ (الأنعام ٩٩) .

(٢) ﴿ **وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين * ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون * وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون * ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** ﴾ (النحل ٦٦-٦٨) .

ولكن كيف يمكننا أن نستخلص علم الآيات من الظواهر الزراعية والحيوانية المذكورة أعلاه حتى نعتبر ويرسخ الإيمان فى قلوبنا وحتى نستيقن من أن القرآن حق من عند الله ؟ تحتاج هذه العملية إلى علمين يكمل بعضهما بعضاً ، أولهما علم السُنن الزراعية والحيوانية ، أى العلوم الزراعية والبيطرية التى تكشف الأسرار العلمية التى تشير إليها آيات الذكر الحكيم أما العلم الثانى فهو فقه القلوب الذى يجعلها مستعدة لإلتقاط آثار الله فى مخلوقاته ، والذى تشير إليه نهايات الآيات فى قوله تعالى ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ ، ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ ، ﴿ **لقوم يتفكرون** ﴾ .

والآن دعونا نرى ماذا تقول العلوم الزراعية عن الأسرار العلمية التى تنطوى عليها الآية (١) لنرى إن كان هناك ما يدعو للإعتبار أولا ثم لنستيقن أن هذا القرآن تنزيل من لدن حكيم عليم

ثانياً : تشير هذه الآية إلى أن الله سبحانه وتعالى ينزل الماء من السماء فيخرج به من الأرض نباتاً شتى فيخرج الله بقدرته من جزء من النبات مادة خضراء وهى ما يعرف باليخضور (Chlorophyll) . الله سبحانه وتعالى يقول ﴿ **فأخرجنا منه** ﴾ الضمير فى منه يرجع للإسم الاخير وهو النبات ، والحرف من يفيد التبعيض ، بمعنى أن الله يخرج من بعض النبات أو جزء منه تلك المادة « **خضرا** » . والواقع يوضح ذلك ، إذ أن هذه المادة توجد فى جزء من النبات ، فى الأوراق وأحياناً فى الساق أو جزء منه وقد يكون فى الثمرة . ولا يوجد فى الجذور. وتختلف النباتات فيما بينها فى ذلك كثيراً ، لكن الحقيقة التى لا خلاف عليها أن مادة اليخضور توجد فى بعض جزء من النبات . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **نخرج منه حباً متراكباً** ﴾ ، أيضاً الضمير فى منه يرجع إلى اخر اسم وهو هنا مادة اليخضور ، وتعنى أنه من جزء من اليخضور يخرج الحب المتراكب ، كيف ؟

أولاً : اليخضور نوعان « أ » و « ب » والنوع الأول هو الذى يدخل فى صنع الغذاء فى ورق النبات ويبرهن هذا على أن بعض اليخْضور هو الذى يصنع الغذاء وليس كل المادة الخضراء ، برهن على ذلك العلم التجريبى وذكره القرآن فى كلمة ﴿**منه**﴾ التى تفيد التبعيض . فهذا الغذاء الذى يصنعه النبات بواسطة المادة الخضراء « اليخضور » وثانى أكسيد الكربون والضوء والماء ، ويسمى « بالكاربوهيدرتيات » ، يحولها النبات بعد الإزهار والتلقيح إلى الازهار والسنابل لتنمو البذور والحبوب ، وهو ما أشارت إليه الآية بالحب المتراكب . ثم يأتى بعد ذلك ذكر الزيتون والرمان مشتبها ، فى حالة النمو الخضرى « قبل الإزهار وظهور الثمر » وغير متشابه فى حالة الإزهار ونمو الثمار ، فجاء الترتيب القرآنى مشتبها وغير متشابه بالتتابع متسقاً مع كون النمو الخضرى أولا ، ثم يتبعه طور النمو الثمرى . ثم تشير الآية إلى حقيقة أن هذين النباتين يمكن تصنيفهما وتمييزهما عندما يبلغا مرحلة النمو الثمرى ﴿ **أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه** ﴾ (الأنعام ٩٩) .

والحقيقة العلمية الثابتة الآن أن النباتات تصنف وتميز بواسطة ثمارها وأزهارها ذلك أنه فى حالة النمو الخضرى يصعب ذلك جداً ، مثال على ذلك محاصيل الذرة والعدار ، أو القمح والعدار فى حالة النمو الخضرى . ويأتى تذييل هذه الآية ﴿ **إن فى**

ذلكم لآيات لقوم يؤمنون ﴾ نعم حقاً وصدقاً ، فالنبات الذى يصنع غذاء فى وجود الماء وثانى أكسيد الكربون والضوء ومادة اليخضور ، ينتج عن ذلك إخراج الحب المتراكب . هذه العملية هى عملية التمثيل الضوئى أو البناء الضوئى التى ألم بها العلم التجريبى بجوانبها قبل ٤٠ عاماً فقط . فكيف يتسنى لرجل أمى معرفة هذه الأسرار لولا أنها من خالق قادر مقتدر .

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة يوسف ٤٣ ﴿ **وقال الملك انى ارى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر واخر يابسات ، يا أيها الملأ افتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون** ﴾ .

فجاء تفسير الحلم على لسان يوسف عليه السلام مما علمه الله من تأويل الاحاديث والحكمة والعلم ﴿ **قال تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلاً مما تأكلون ، ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلاً مما تحصنون** ﴾ (يوسف ٤٧-٤٨) . يتضح من هذه الايات الاتى :

(١) ان الجفاف فى هذا الجزء من العالم ، وهو منطقة حوض النيل معروف قبل الآف السنين وهو بالتالى ظاهرة مناخية قديمة .

(٢) لما كانت طبيعة هذه المنطقة هكذا ، تصيبها سنين الجفاف فى فترات غير محددة قد تمتد لسبع سنين وقد تقل عن ذلك . وقد تأتى سنوات إنتاج وفير وحصاد كبير ، فالواجب إذن ان نخزن جزءاً مما ننتجه فى سنين الوفرة لسنوات الجفاف والندرة فى الإنتاج .

وعليه فإننا نعتبر التخزين من الضرورات فى العملية الزراعية ، ونعتبره مدخلاً هاماً مثله فى ذلك مثل بقية مدخلات الانتاج ، ذلك اننا نؤمن بان الله وحده هو الذى ينزل الغيث ﴿ **وينزل الغيث** ﴾ بالكم والكيف ﴿ **بقدر** ﴾ وبالتالى لا يستطيع إنسان كائنا من كان أن يتنبأ بذلك ولا نعرف ما سوف يكون عليه الحال فى العام القادم مثلاً من حيث كمية الأمطار . وعليه يستوجب ذلك أن ندخر جزءاً مقدراً من إنتاجنا كمخزون إستراتيجى ، هذا ما أرشدنا إليه الله فى القرآن الكريم ، وعليه فإن التخزين ضرورة ونريد لمناهجنا التعليمية فى كليات الزراعة أن تولى هذا الجانب أهميته وتعمل على تطويره ذلك أننا لا نستطيع أن نخزن كما جاء فى الآية الكريمة بترك المحصول فى

سنبله ، رغم أن الدراسات العلمية قد أثبتت أن ذلك هو أفضل وأجود أنواع التخزين لأن الآفات لا تفتك بالمحصول فى سنابله فى حالة تخزينه للحماية التى اعطاها الله للبذرة فى السنبلة . يوجد اليوم إعتقاد ناقص عند المسئولين هو أننا بتركيزنا على الزراعة المروية نستطيع أن نقلل أو نتجاوز الآثار السلبية لتقلبات الإنتاج المطرى . ووجه النقص فيه هو أنه يعتمد على متغير ليس لأحد السيطرة عليه سوى الله تعالى : ﴿ **أرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون** ﴾ (الواقعة ٦٩) فإن لم ينزل الغيث بالكم المطلوب ، لن يكون هناك رى للزراعة المروية مهما عملنا من خزانات ، وهو عمل لا بأس به ولكن يجب علينا أن نخزن مخزوناً إستراتيجياً يكفينا لعدة سنوات.

ويقول الله سبحانه : ﴿ **فليظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا** ﴾ (عبس ٢٤-٢٧) . الشئ الذى نريد ذكره هو هذا التسلسل العلمى الدقيق ذلك أن نزول الماء يترتب عليه أولاً شق الأرض ، نتيجة لعدة عوامل ، منها تسرب الماء إلى داخل التربة وخروج الهواء منها وما يتبع ذلك من حركة طبيعية ، ثم زيادة التربة وتمددها لإمتصاصها الماء ، فهذا الإهتزاز والتمدد وما يتبعه من إنبات فى داخل الأرض بخروج الجذر أولاً ثم الجزء العلوى (الساق)، ثانياً ينتج عنه تشقق الأرض ، ثم يأتى الإنبات فى المرحلة الثالثة بظهور النبات فوق الأرض، ولعمرى هذا هو العلم حقيقة وما ندرسه الآن فى الجامعات . فالإنبات فى المعامل يحدث عندما تنشق الفلقة عن الجذر ويظهر بطول ٥-١٠ ملم، أما فى الحقول فالإنبات يثبت علمياً بظهور النبات فوق سطح الأرض ﴿ **أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً** ﴾ . والإشارة القرآنية ﴿ **فأنبتنا فيها حباً** ﴾ تعنى أن الإنبات يحدث داخل الأرض ﴿ **فيها** ﴾ فكيف لرجل لم يعمل بالزراعة أن يسجل هذا الوصف العلمى الدقيق ، سبحان الله إنه من عند خالق مقتدر . (٤)

ويبقى السؤال الذى ينبغى أن يجيب عليه علماء الزراعة المسلمون : لماذا مكثنا حتى جاءنا كل هذا العلم الزراعى والنباتى من أوربا ولم يأتنا من القرآن رغم مداومتنا على التعبد بتلك الآيات ليلاً ونهاراً ؟

ثانيا :- فيما يتعلق بالعلم بالنعمة والحكمة من خلقها فالمطلوب هو معرفة

خصائص نعم الله وأسرارها وكيفية الانتفاع بها وتجنب مضارها، ومعرفة الحكمة من خلقها والوجه الأمثل لإستخدامها لتتحقق تلك الحكمة . وهذا أيضا يقودنا فى مجال الزراعة الى الحاجة الى علوم النبات والزراعة التى تمكننا من إستغلال نعم الله للقيام بمهام الخلافة على الأرض وواجب إعمارها بمقتضى العدل والإحسان .

(٣) متلقى المعرفة

لقد قلنا فى الصفحات السابقة أن العلوم الزراعية كغيرها من العلوم الطبيعية مطلوب منها أن تضطلع بمهمتين فى إطار نظرية المعرفة الإسلامية . أما الدور الأول والأهم بمنطوق نصوص القرآن فهو تمكيننا من اكتشاف آيات الله فى كونه من خلال الكشف العلمى عن اسرار النباتات والزراعة . أما الدور الثانى فهو تمكيننا من استغلال نعمة الله إستغلالا أمثل للقيام بمهمة الخلافة وواجب إعمار الأرض . فما هى الحال التى ينبغى أن يكون عليها طالب العلوم الزراعية عقلاً وقلباً حتى يتمكن من الإنتفاع بتلك العلوم فى دوريها المذكورين ؟ إن على طالب العلوم الزراعية لكى يرى آيات الله فى الآفاق من خلال علومه الزراعية أن يكون من الذين يتفكرون ويفقهون ويؤمنون . وهذه الحال تقتضى أن تكون التربية الإسلامية القائمة على تزكية النفس جزءاً أصيلاً من مناهج التعليم عند طالب العلوم الزراعية . كذ لك فإن إخلاص النية لله فى تحصيل العلم والصبر والتوكل والاستعانة بالله لكشف ما خفى عليه من اسرار العلم أمر ينبغى أن يتجذر فى نفس الطالب المسلم . لقد كان الإمام ابن تيمية عندما تشكل عليه مسألة علمية يصلى ويتوجه الى الله تعالى قائلاً : { **اللهم يا معلم إبراهيم علمنى** } . كذلك ينبغى عليه أن يكون عالما بنظرية المعرفة الاسلامية وموقع العلوم الزراعية فى إطارها ومصدرها وتطبيقها.

(٤) المنهجية

نحن هنا نقصد الوسائل اللازمة للكشف عن المعرفة (**العلوم الزراعية**) من مصادرها وتوصيلها الى متلقيها . ولاشك أن أهم الوسائل المعرفية هى تلك التى أثبتها القرآن للإنسان : ﴿ **والله أخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** ﴾ (النحل ٧٨) . فالسمع والبصر وباقى قدراتنا الحسية هى وسائلنا لجمع المعلومات من الكون المحسوس والفؤاد أو القلب يحلل تلك

المعلومات منطقياويستنتج ثم قد يعقل وقد يفقه .

ولكن الكون ليس وحده مصدر معرفتنا ، فهنالك الوحى كما أثبتنا . وكما أن للكون وسائل لاستخلاص المعارف منه تقوم على الملاحظة الدقيقة والقياس والتجربة ويتعلمها الطالب قبل البدء فى بحوثه ، فكذلك للقرآن والسنة من الوسائل ما يمكن من الكشف عن مكنون علومها وعلى الطالب الزراعى أن يتعلمها ويأخذها من مظانها كما هو حاله مع المادة المحسوسة . ولعل المكان مناسب هنا أن نثبت ما ذكرناه فى المقدمة عن بعض علاقات السببية التى ترفضها الفلسفة الوضعية ولكنها فى صميم التفسير القرآنى للظواهر ومنها الظواهر الزراعية . تلك هى العلاقة السببية بين ما يصيب الزرع من صلاح أو فساد مثلاً وبين الموقف الأخلاقى لأهله من نعمة الله شكراً أو كفراً ، والآيات الآتية تثبت دعوانا :

(١) ﴿ واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً .... وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحداً﴾ (الكهف ٣٢-٣٥ ، ٤٢) .

(٢) ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون فأصبحت كالصريم ﴾ (القلم ١٧) .

(٣) ﴿ لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وعن شمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور ﴾ (سبأ ١٥-١٧).

(٤) ﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ﴾ (الأعراف ٩٦) .

إن هذه السببية القائمة على العلاقة بين أفعال الناس وما يجرى فى زراعتهم من أقدار الله تقوم فى القرآن والسنة مقام الأسباب القائمة على السنن الطبيعية

لتفسير ذات الظواهر الزراعية . والسؤال المطروح على علماء الزراعة والنبات كيف نجمع ونوفق بين تلك الأسباب فى بحوثنا وتوصياتنا علماً بأن السببية القرآنية والسنية أكثر صدقاً ويقيناً من وجهة النظر العلمية من تلك القائمة على ما ظهر لنا من سُنن .

(٥) التطبيقات:

إن تحويل العلوم إلى تقنية بغرض إستخدامها فى شتى مجالات الحياة يحكمه فى إطار الإسلام عقد الإستخلاف بين الله سبحانه وتعالى وبين الإنسان . وهذا العقد يقتضى من الإنسان أن يعمل صالحاً فى الأرض : ﴿ **والعصر إن الإنسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** ﴾ . والعمل الصالح شرطه أن يكون خالصاً لله ووفق شرعه . وهذا يعنى أن تتحول كل ميادين الحياة إلى ساحات للعبادة ، وأن تسخر التقنية فى كل مجال ما يمكن الإنسان المسلم من القيام بواجب العبادة لله تعالى .

إن القرآن يخبرنا أن الله سبحانه وتعالى جعل المال قياماً تقوم به حياة الناس ولكنه أيضاً يمكن أن يصير فتنة تقوض تلك الحياة إذا صار فى أيدى السفهاء الذين لا يقيمون الوزن بالقسط ويخسرون الميزان : ﴿ **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً** ﴾ . وفيما نحن بصدده فإن علوم الزراعة وتقنيتها ينبغى أن تكون فى أيد أمينة تسخرها لإنتاج ما تقوم به حياة المسلمين وتقوى به دولتهم ويمتد فيض غذائهم إلى غيرهم من المستضعفين فى الأرض . كل ذلك من الدين والعمل الصالح : ﴿ **أرايت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين** ﴾ (الماعون ١-٣) ، ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم** ﴾ (الممتحنة ٦) ، ﴿ **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة** ﴾ (الأنفال ٦) . كل ذلك دون تفريط يعطل عمارة الأرض ، أو إفراط يضر ببيئتها ويظهر فيها الفساد : ﴿ **ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس** ﴾ (الروم ٤١) .

خاتمة:

والآن نحاول فى إيجاز لم شتات ما قلنا عبر الصفحات الماضية وذلك من خلال دلالة النموذجين المعرفيين العلمانى والإسلامى على العلوم الزراعية فى إطار أركان المعرفة الخمسة .

(١) النموذج المعرفى العلمانى يعتمد الكون وحده مصدراً للمعرفة الزراعية بينما يعتمد نظيره الإسلامى القرآن الكريم والكون المحسوس كمصدرين لها .

(٢) النموذج المعرفى العلمانى تحتوى علومه على النظريات المتعلقة بالقوانين

الطبيعية التى تفسر الظواهر وتحاول التنبوء بما هو متوقع منها أما نظيره الإسلامى فهو يجمع بين قوانين الطبيعة وفقه القلوب للتدبر والتفكر أولاً فى آيات الآفاق لمعرفة خالقها ثم استخدام تلك القوانين والسُنن فيما يستخدمها فيه النموذج العلمانى ثانياً .

(٣) النموذج العلمانى يفرض على طالب العلوم الزراعية عقيدة مادية تبعد كل ما له علاقة بالغيب عموماً وبالله خاصة عن عقله العلمى وتفسيره للظواهر موضوع دراسته . أما النموذج الإسلامى فإن عالم الغيب هو مدخله إلى عالم الشهادة فى مجال الزراعة وغيرها ويفترض فى طالب العلم القدرة على التفكر والتدبر والعقل لآيات الله المبثوثة فى كونه .

(٤) بينما يتفق النموذجان فى المنهجية المتعلقة بإكتشاف القوانين والسُنن الطبيعية فى الكون فإن النموذج الإسلامى يتفرد بمنهجيته المتعلقة بالفهم من القرآن والسُنة وبما هو مطلوب لتزكية النفس وتربيتها اللازمة لفقه القلوب .

(٥) بينما يوظف النموذج العلمانى العلوم والتقنية لتعظيم متاع الحياة الدنيا فإن النموذج الإسلامى يوظفها فى تطبيقاته بمقتضى عقد الخلافة الملزم للإنسان بالعمل الصالح عدلاً وإحساناً .

هوامش

(١) راجع ورقة د. محمد المسيرى غير المنشورة بعنوان « العلمانية » .

(٢) الورقة أعلاه .

(٣) راجع ورقة د. محمد الحسن بريمة : « إسلامية المعرفة لماذا ؟ » ، ورقة نقاش رقم (١) معهد إسلامية المعرفة جامعة الجزيرة ، ١٩٩١م .

(٤) إعجاز النبات فى القرآن الكريم : الدكتور نظمى خليل أبو العطا – مكتبة النور – ٨ شارع الأهرام روكسى – مصر الجديدة .